فن الصداقة والأصدقاء

هذه الكلمات النافعات هي ما اهتدى إليها الظاهري ابن حزم الأندلسي رحمه الله بعد أن حنكته التجارب، وعلّمته فن التأمل والتخاطب والمعاشرة مع الناس، وما تكنُّ لصديقك من الود والمسامحة وبشاشة الوجه، والموضع الذي تضعه فيه. ولنهتد ونقتبس من رياض ابن حزم النضرة في مداواة النفوس والطبائع.

قديماً قيل: ليس من جرّب كمن لم يجرّب، واسأل المجرّب قبل الحكيم. والآن لنقتطفَ قطوفاً وأزاهير دانية من هذا المرتع الخصب الذي أزلف للمتقين أيضاً ولعشاق جنى يرومون الاهتداء والجلوس في مرابع العلماء.

1 ـ يقول ابن حزم: لا ترغب فيمن يزهد فيك، فتحصل على الخيبة والخزي. ولا تزهد فيمن يرغب فيك فإنه باب من أبواب الظلم وترك مقارضة الإحسان، وهذا قبيح.

2 ـ النصيحة مرتان: فالأولى فرض وديانة. والثانية تنبيه وتذكير. وأما الثالثة فتوبيخ وتقريع. وليس وراء ذلك إلّا الركل واللطام (اللكام) وربما أشد من ذلك من البغي والأذى، اللهم إلّا في معاني الديانة فواجب على المرء ترداد النصح رضي المنصوح أو سخط، وتأذى الناصح بذلك أو لم يتأذ.

3 ـ إذا نصحت فانصح سراً، لا جهراً، أو بتعريض لا بتصريح إلّا لمن لا يفهم، فلا بدّ من التصريح له. وفي

هذا المجال يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

تعمدني النصح في انفرادي فإن

النصح بين الجماعة نوع من التوبيخ

4 ـ من أردت قضاء حاجته بعد أن سألك إياها، أو أردت ابتداءه بقضائها، فلا تعمل له إلّا ما يريد هو، لا ما تريد أنت، وإلّا فأمسك فإن تعديت هذا كنت مسيئاً لا محسناً، ومستحقاً للوم منه ومن غيره لا للشكر، ومقتضياً للعداوة لا للصداقة.

5 ـ لا تنقل إلى صديقك ما يؤلم نفسه ولا ينتفع بمعرفته، فهذا فعل الأراذل، ولا تكتمه ما يضره بجهله، فهذا فعل أهل الشر.

6 ـ لا يسرّك أن تُمدح بما ليس فيك، بل ليعظم غمك بذلك؛ لأنه نقصك ينبّه الناس عليه ويسمعهم إياه وسخرية منك، وهزء بك، ولا يرضى بهذا إلّا أحمق ضعيف العقل. ولا تأسَ أن ذممت بما ليس فيك، بل افرح به، فإنه فضلك ينبّه الناس عليه، ولكن افرح إذا كان فيك ما تستحق به المدح، وسواء مدحت به أو لم تمدح، واحزن إذا كان فيك ما تستحق به الذم، سواء ذممت به أو لم تذم[1].

□□

(1) رسائل ابن حزم (1/ 359).

المصاحبة وأدب المعاشرة

ننقل لك عبارات شيقة من كتاب (المعاش والمعاد) للجاحظ، عن كيفية المصاحبة والظفر بالأصدقاء، وخاصة والناس معادن وطبائع؛ فكيف تتفتح هذه القلوب المتعددة الجوانب، وعميقة المسارب ومختلفة المشارب؟

يقول الجاحظ: واعلم أنك ستصحب من الناس أجناساً متفرقةً حالاتهم، متفارقة منازلهم، وكلهم بك إليه حاجة، وكلُّ طائفة تسُدُّ عنك كثيراً من المنافع لا يقوم به من فوقها، ولعلهم مجتمعون على نصيحتك والشفقة عليك، فمنهم من تريد منه الرأي والمشورة، ومنهم من تريده للحفظ والأمانة، ومن منهم من تريده للشدّة والغلظة، ومنهم من تريده للمهنة، وكلٌّ يسدُّ مسدّه على حياله، وقد قيل في الحكمة: «إن الخلال تنفع حيث لا ينفع السيف».

* قال ابن المعتز: لا تقطع أخاك، بعد عجز الحيلة عن استصلاحه، ولا تتبعه بعد القطيعة وقيعة فيه، فتسد طريقه عن الروح إليك، ولعل التجارب أن ترده إليك وتصلحه لك.

ومن لم يتجاوز عن إساءة الآخرين فقدهم، وقد قالوا بذلك: «كطالب القرط جُذعت أذنه»[1].

* وصدق الشاعر:

---

(1) الفتور، أسبابه وعلاجه، جاسم بن محمد إلياسين، ص: 48، دار الدعوة.

فما كل من تهواه يهواك قلبه
ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة
فلا خير في ودٍ تكلفا
ولا خير في خلٍ يخون خليله
ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشاً قد تقادم عهده
ويظهر سراً كان بالأمس في خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها
صديق وفي يصدق الوعد منصفا[1]

* قال الإمام علي ﷺ عن الصداقة والصديق: احمل نفسك من أخيك عند صرمِهِ على الصلة، وعند صُدوده على اللطف والمقاربة، وعند جموده[2] على البذْلِ، وعند تباعده على الدنوّ، وعند شدّته على اللين، وعند جُرمهِ على العذر، حتى كأنك له عبد وكأنه ذو نعمة عليك، وإياك أن تضع ذلك في غير موضعِه أو أن تفعله بغير أهله.
* لا تتخذنّ عدُوَّ صديقكَ صديقاً فتعادي صديقك.
* وإن أردت قطيعةَ أخيك فاستبقِ له من نفسك بقية ترجع

(1) مذكرات الشيخ عبد الحميد كشك(قصة أيامي)، ص: 24.
(2) صَرمَه: قطيعته. وصدوده: بعده، والجمود: البخل.

إليها أن بدا له ذلك يوماً ما.

* ومن ظنّ بك خيراً فصدِّق ظنّهُ.
* ولا تُضيعنَّ حق أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخٍ مَنْ أضعت حقه[1].

❑❑

ندرة الصديق الصادق

* لا تحقد على أحدٍ، فالحقد ينال منك أكثر مما ينال من خصومك، ويبعد عنك أصدقاؤك، كما يؤلب عليك أعداؤك، ويكشف من مساويك ما كان مستوراً.
* لا تعامل الناس على أنهم ملائكة فتعيش مغفلاً، ولا تعاملهم على أنهم شياطين فتعيش شيطاناً، ولكن عاملهم على أن فيهم بعض أخلاق الملائكة وكثيراً من أخلاق الشياطين.
* عش مع الناس وسطاً بين العزلة والانقباض ، وعش مع إخوانك وسطاً بين الجد والهزل، وعش مع تلاميذك وسطاً بين الوقار والانبساط[2].
* ودر الشاعر:

إن صديق الحق من كان معك

ومَنْ يضرُّ نفسه لينفعك

(1) في ظلال نهج البلاغة (3/ 519)، ط 1، 1973م دار الكتاب الإسلامي.
(2) هكذا علمتني الحياة، مصطفى السباعي، القسم الأول، الاجتماعي، ط2، 1972.

ومـــن إذا ريـــب الـــزمـــان صـــدعـــك
شـــتـــت فـــيـــك شـــمـــلـــه لـــيـــجـــمـــعـــك

وهو نادر جداً في هذا الزمان

□□

قانون الأخوة

نشيد «أخي» لسيد قطب رحمه الله تعالى:

الأخوة هي الأساس الذي شاد عليه الإسلام بناءه الاجتماعي وجعلها علاقة حقيقية تزيد على علاقة الدم والنسب وتفضلها، وتجعل بين المؤمنين رباطاً روحياً يتمثل في إيمانهم بإله واحد، واعتقادهم بغاية واحدة للحياة، وبالأخوة تتصل القلوب وتشتد العزائم وترتفع الرايات، ومن أجل ذلك نظم الشهيد سيد قطب «نشيد الأخوة» وهذا النشيد الإسلامي الهادر الذي رسم به معالم طريق الدعوة، وصور أشواكها، وبيّن عاقبتها، وقد وعته قلوب الشباب العاملين وتردد على شفاههم وقد قاله في لحظة انفعال ظاهر، إذ أنه عندما كان خارجاً من زنزانته إلى ساحة السجن، لمح يد أحد إخوانه تحيّيه بحرارة ظاهرة من إحدى الزنازين، ولم يعرف صاحبها ولكن حركتها نقلت إلى قلبه كل ما يريد أخاه أن يقوله، فتجاوبت روحه وانفعلت أحاسيسه وتوهجت، وانطلق لسانه بهذا النشيد الذي سوف نعيش أجواءه المفعمة بالإيمان والمشاهد البطولية فيها. لندخل إلى صميم هذه الأنشودة الخالدة لنستلهم منها قانون

الأخوة الإسلامية ونشدان العبر والدروس[1].

أخي أنت حُرٌّ وراء السُّدود ... أخي أنت حُرٌّ بتلك القيود
إذا كنت بالله مستعصماً ... فماذا يَضيرُك كيدُ العبيد
أخي ستبيد جيوش الظلام ... ويُشرِق في الكون فجر جديد
فأطلق لروحك إشراقها ... ترى الفجر يَرمُقنا من بعيد
أخي قد أصابك سهم ذليل ... وغدراً رماك ذراعٌ كَليل
ستبتر يوماً فصبر جميلٌ ... ولم يَذْمَ بعدُ عرين الأسود
أخي قد سَرتْ من يديك الدماء ... أبت أن تُسَلَّ بقيد الإماء
سترفع قربانها... للسماء ... مخضّبة بوسام الخلود
أخي هل تُراك سئمت الكفاح ... وألقيت عن كاهليك السلاح
فمن للضحايا بواسي الجراح ... ويرفع رايانها من جديد
أخي هل سمعت أنين التراب ... تدُكّ حصاه جيوش الخراب
تُمزَّق أحشاءه بالجِراب ... وتصفعُه وهو صلب عنيد
أخي إنني اليوم صلب المراس ... أدُكّ صخور الجبال الرواسي
غداً سأشيع بفأس الخلاص ... رؤوس الأفاعي إلى أن تبيد
أخي إن ذرفت عليّ الدموع ... وبلّلتَ قبري بها في خشوع
فأوقِدْ لهم من رفاتي الشموع ... وسيروا بها نحو مجدٍ تليد

(1) أناشيد الدعوة الإسلامية، اختارها أحمد عبد اللطيف وحسن أدهم، دار الفرقان، عمان، 119، وسيد قطب الشهيد الحي 197، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي.

أخي إنْ نَمُتْ نلق أحبابنا ... فَرَوْضات ربي أُعِدت لنا
وأطيارُها رفرفت حولنا ... فطوبى لنا في ديار الخلود
أخي إنني ما سَئِمتُ الكفاح ... ولا أنا لَقيتُ عنّي السلاح
وإن طوقتني جيوش الظلام ... فإنني على ثقة بالصباح
وإني على ثقة من طريقي ... إلى الله ربِّ السَّنا والشروق
فإن عافني السَّوقُ أو عقّني ... فإني أمين لهدي الوثين
أخي أخذوك على إثرنا ... وفوجٌ على إثر فوج جديد
فإن أنا مُتُّ فإني شهيد ... وأنت ستمضي بنصر جديد
قد اختارنا الله في دعوته ... وإنا سنمضي على سَنَنِهِ
فمنا الذين قضوا نحبهم ... ومنا الحفيظ على ذمته
أخي فامض لا تلتفت للوراء ... طريقك قد خضّبتهُ الدماء
لا تلتفت ههنا أو هناك ... ولا تتطلع لغير السماء
فلسنا بطير مهيض الجناح ... ولن نستدل ولن نستباح
وإني لأسمع صوت الدماء ... قوياً ينادي الكفاح الكفاح
سأثأر لكن لِرَبٍّ ودين ... وأمضي على سنتي في يقين
فإما على النصر فوق الأنام ... وإما إلى الله في الخالدين[1]

❑❑

تشخيص الداء

قالوا: إن ملكاً ظالماً كان يجلس في حديقه قصره...

(1) المذكرات (1/ 126).

فرأى بومتين تتحدث إحداهما إلى الأخرى، فاستدعى رجلاً صالحاً ليسأله عما تقول هذه البوم في قصره الذي لم يُشاهد فيه قبل ذلك بومة أو غراباً... فقال له الرجل الصالح : أن (بومة) ذكراً أرادت الزواج من بومة أنثى وقد اشترطت عليه أن يكون مهرها في الزواج عشرين قرية خراباً... فقال (البومة) الذكر للبومة الأنثى: اطمئني... إن دامت أيام هذا الملك... فسأقدم لك مهراً ألف قرية خراباً لا عشرين قرية...

فتنبّه الملك وقال للرجل: ماذا تعني؟

فقال له: أيها الملك، إنّ المُلك لا يتم عزه إلّا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف حسب أمره ونهيه، ولا قيام للشريعة إلّا بالملك، ولا عز للملك إلّا بالرجال، ولا قيام للرجال إلّا بالمال... ولا سبيل للعمارة إلّا بالعدل)[1].

□□

بالإسلام

يقول عبد الودود شلبي: هنا تحضرني كلمة للأستاذ ب. إيرفنج الأستاذ بجامعة تنسي الأمريكية حينما وقف مخاطباً تجمعاً للمسلمين في مدينة «جلاسجو» ببريطانيا منذ سنوات قال: «إنكم لن تستطيعوا أن تنافسوا الدول الكبرى علمياً أو تقنياً أو اقتصادياً أو عسكرياً... ولكنكم تستطيعون أن تجعلوا تلك الدول تجثو على ركبتيها أمامكم بالإسلام... أفيقوا من

(1) عرب ومسلمون للبيع، عبد الودود شلبي، ص: 10.

غفلتكم لقيمة هذا النور الذي تحملونه... والذي تتعطش إليه أرواح الناس في مختلف جنبات الأرض... تعلموا الإسلام وطبقوه، واحملوه لغيركم من البشر تنفتح أمامكم الدنيا، ويَدِنْ لكم كل ذي سلطان... أعطوني أربعين شاباً ممن يفهمون هذا الدين ويعيشون به ويحسنون عرضه على الناس بلغة العصر وأسلوبه وأنا أفتح به الأمريكتين)[1].

□□

محنة خبيب بن عدي

لقد جرت سنة الله ﷻ في خلقه أن يفتنهم ويختبرهم ليميز الخبيث من الطيب. ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[2].

ولقد اعتاد الظالمون (الطغاة) أن يضطهدوا الذين يخالفونهم في سلوكهم المنحرف، ويناهضونهم في أفكارهم الباطلة، ولم يسايروهم في أهوائهم، وأن ينزلوا بهم أنواع المحن، بعد أن أعرضوا عن أشكال المنح التي قدمتها الطغاة إليهم، ولكن أنّى للنفوس الكريمة ذات المعدن الطيب أن تقبل بعيش الأنعام أو أن تغرى بمال، ويسيل لعابها على فتات الدنيا؟

أما المحن فقد استعدوا لها، وتحملوا نارها بصبر وجلَد، وصابروا شدة بأسها بعزم واحتساب، لأنهم فقهوا قول الله

(1) عرب ومسلمون للبيع، ص: 66.

(2) سورة العنكبوت، الآيتان: 2، 3.

تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[1] وآمنوا بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[2]، وفي مقدمة الذين أصابتهم المحن، ونزلت بهم الشدائد الصعاب فخرجوا منها ظاهرين مصداقاً لقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة**». نعم انتصروا بعد ما ظلموا. وظفروا من بعد محنهم وظهر الحق الذي آمنوا به، ولو استشهد بعضهم في سبيل ذلك؛ لأن النصر الحقيقي هو نصر العقيدة أو ظهور الحق للعيان الذي كان سبباً في تلك المحن ولأن البقاء في الدنيا هو العقيدة والحق، أما الممتحنون فلهم بقاء الذكر الجميل على مر الدهور، وهذا كائن ولو لم يخطر ببالهم؛ لأنهم أخلصوا العمل والتضحية لله وحده، والتفيؤ بظلال الجنة ونوال رضوان الله في الآخرة، وهذا هو البقاء الحق والنصر المبين، إن الذين امتحنوا في دينهم ومن أجل إسلامهم كثيرون. والآن نعرض عليك أيها القارئ والأخ العزيز قصة من هذا القبيل بطلها من الرعيل الأول زمن خريجي مدرسة الدعوة الإسلامية الأولى بقيادة قائدها ومعلمها الرسول القائد ﷺ، أرسله الرسول ﷺ مع كوكبة من الدعاة لخوض غمار الدعوة وبيان مبادئها وأحكامها، إنه: الصحابي الجليل خُبَيب بن عدي بن مالك الأنصاري الثابت الصابر في ذات الله.

(1) سورة التوبة، الآية: 81.

(2) سورة البقرة، الآية: 207.

والآن نأتي لذكر قصة هذا الصحابي مع ذكر أنشودة له:

في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة قدِمَ على رسول الله ﷺ قوم من عُضَل، وذكروا أن فيهم إسلاماً، وسألوه أن يبعث معهم مَنْ يعلمهم الدين. قال الإمام البخاري: كانوا عشرة، وأمّر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وفيهم خبيب بن عدي بن مالك، فذهبوا معهم، فلما كانوا بالرجيع - وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز - غدروا بهم، واستصرخوا عليهم هُذيلاً فجاؤوا حتى أحاطوا بهم، فقتلوا عامتهم، واستأسروا خبيب وزيد بن الدِّثنة فذهبوا بهما وباعوهما بمكة، وكانا قتلا من رؤوسهم يوم بدر، فأما خبيب فمكث عندهم مسجوناً في بيت بني الحارث.

وهنا نقف قليلاً مع خبيب في سجنه الانفرادي، لنستمع إلى مارية مولاة حجير بن أبي إيهاب وكانت قد أسلمت تروي لنا تلك اللحظات الإيمانية الهانئة التي عاش في ظلالها مترجمنا هنيئاً تحفّه ملائكة الرحمٰن وقدموا له من فواكه الجنة ما لذ وطاب، فهنيئاً له مرة أخرى وأخرى، قالت مارية: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذٍ ثمرة وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلّا رزق رزقه الله. وحين أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث (ويحتمل أن يكون الحارث أباً لمارية من الرضاع) ليستحدَّ بها (أي يتطهر للقتل، وفي رواية بريدة بن سفيان: ليتطيب بها والمراد أنه يحلق عانته) فأعارته، قالت: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه،

فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذاك مني وفي يده الموسى فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله.

ولقد كانت هذه اللحظة، في حساب من يتعلق بالحياة ويفكر في الانتقام، فرصة رائعة لمساومة أو غدر في مقابل غدر. ولقد كان هذا هو حساب أهل البيت كلهم، فما إن انتبهت أم الطفل إلى انصرافه نحو خبيب حتى هبت مذعورة لتخلصه من براثن موت مؤكد!... ولكنها وقفت مندهشة عندما رأت طفلها وقد أجلسه خبيب ﷺ في حجره يلاطفه كأنه أب شفوق ونظر إليها وقد علم بما في نفسها من الخوف، وقال لها في هدوء المؤمن الحليم:

أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل إن شاء الله.

فانظر إلى معجزة التربية الإسلامية للإنسان: خبيب هذا، وأولئك المشركون الحاقدون الذين راحوا يصنعون له الموت ظلماً وعدواناً عرب أنبتتهم أرض واحدة، ولكن حبيباً اعتنق الإسلام فأخرجه الإسلام إنساناً آخر، وأولئك عكفوا على ضلالاتهم، فحبستهم ضلالاتهم في طبائعهم المتوحشة الغادرة، فما أعظم ما يفعله الإسلام في الطبيعة البشرية من تغيير وتحويل...

ثم خرجوا بخبيب حتى إذا جاءوا به إلى التنعيم ليصلبوه، قال لهم: دعوني أُصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت. فكان أول من سنّ ركعتين عند القتل هو (لأنه كان في عهد الرسول ﷺ ولما سمع أقره) فلما رُفع على الخشبة استقبل الدعاء ـ فلبد رجل

بالأرض خوفاً من دعائه ـ فقال: اللّهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً (متفرقين) ولا تبقي منهم أحداً، قال الراوي: فلم يحل الحول وما منهم أحدٌ حي غير ذلك الرجل الذي لبد بالأرض. وفي رواية أبي أسود عن عروة: فلما وضعوا فيه السلاح وهو مصلوب نادوه وناشدوه: أتحب أن محمداً مكانك؟ قال: لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه.

قال أبو سفيان عندما سمع جواب خبيب أو زميله زيد: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً!.

ثم أنشد خبيب أنشودته الخالدة:

لَقَدْ اجْمَعَ الأحْزَابُ حَوْلي، وألّبُوا
قَبَائِلَهُم واسْتَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعِ[1]
وكُلّهُمُ مبدي العداوةِ جاهدٌ
عَلَيَّ لأنّي في وِثاقٍ بِمَضْيَعِ
وَقَدْ قَرَّبُوا أبْنَاءَهُم وَنِسَاءَهم
وقُرِّبْتُ مِنْ جَذْعٍ طويل مُمَنَّعِ
إلى اللهِ أشْكُو غُربَتي بَعْدَ كُرْبتي
وما أرصَدَالأحْزَابُ لي عِند مَصْرَعِي[2]

(1) ألّبوا: جمعوا.
(2) أرصد: أعدّ.

فذا العَرْشِ صَبِّرني على ما يُراد بي
فقدْ بضَّعوا الحمى وقد يئس مَطْمَعي[1]
وقَدْ خيَّرُوني الكُفْرَ، والموتُ دُونَه
فقد ذَرَفَتْ عيْناي مِنْ غَيرِ مَجْزِعِ[2]
وَما بِي حِذارُ الموتِ إنّي لَمَيِّتٌ
وإنَّ إلى ربِّي إيابي ومَرْجعي
وَلَسْتُ أُبالِي حين أُقْتَلُ مُسْلِماً
عَلَى أيِّ شِقٍّ كانَ في اللهِ مَضْجَعي
وَذلِكَ في ذَاتِ الإلهِ وإنْ يَشَأْ
يُبارِكْ على أوصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[3]
فَلَسْتُ بمبدٍ للعدوِ تَخَشُّعاً
ولا جزعاً، إني إلى الله مَرجِعي

ثم رفعوه على خشبة ، فلما أوثقوه، ووضعوا فيه السلاح وهو مصلوب نادوه وناشدوه: أتحب أن محمداً مكانك قال: لا، والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه.

وفي تلك اللحظة اقتربوا منه بالرماح وقد أتوا بأربعين من

(1) بضعوا: قطعوا.
(2) المجزع: الخوف والحزن.
(3) الأوصال: جمع وصل وهو العضو، والشلو: بكسر المعجمة، الجسد وقد يطلق على العضو ولكن المراد به هنا الجسد، والممزع: بالزاي ثم المهملة: المقطع، ومعنى الكلام: أعضاء جسد مقطع.

أبناء قتلى بدر وأعطوهم الرماح ثم قالوا: هذا الذي قتل آباءكم ببدر.

فقال خبيب: اللّهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فأبلغه الغداة ما يصنع بنا، اللّهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً.

وهنا ألقى معاوية بن أبي سفيان ـ وكان من بين القرشيين ـ نفسه إلى الأرض فرقاً من دعوة خبيب، وهرب حكيم بن حزام، واختفى جبير بن مطعم.

قال الراوي: فلم يحل الحول ومنهم أحد حي، غير ذلك الرجل الذي لبد بالأرض، ثم بدأوا يطعنونه فاستدار إلى الكعبة فقال: الحمد لله الذي جعل وجهي نحو قبلته التي رضي لنفسه ولنبيه وللمؤمنين، ثم عادوا إلى طعنه وهو ينادي «لا إله إلّا الله محمد رسول الله».

تلك هي قصة أهل الرجيع.

وهنا يقف الحليم حيران، ويتساءل عقلاء الرجال فيما بينهم: ما هي الأسباب والعوامل التي بلغت بالمسلمين إلى هذه الغاية القصوى، والحد المعجز من الثبات؟ كيف صبروا على هذه الاضطهادات التي تقشعر لسماعها الجلود وترجف لها الأفئدة؟

إن السبب الرئيس في ذلك أولاً وبالذات هو: الإيمان بالله.

فالإيمان الجازم إذا خالطت بشاشته القلوب يزن الجبال ولا يطيش، وإن صاحب هذا الإيمان المحكم يرى متاعب الدنيا مهما كثرت وكبرت ـ يراها في جنب إيمانه ـ طحالب عائمة فوق سيل جارف، جاء ليكسر السدود المنيعة والقلاع الحصينة، فلا يبالي شيئاً من تلك المتاعب أمام ما يجده من حلاوة وطراوة إذعانه وبشاشة يقينه، وصدق القائل: لو علم الملوك ما نحن عليه من لذة لجالدونا عليه بالسيوف[1].

❑❑

تزكية النفس

تزكية النفس بدايتها ونهايتها التوحيد، ويدخل في ذلك تطهيرها من أمراضها وتحقيقها بكمالاتها ومنعها المحرمات وإقامتها للطاعات، والأمر واسع جداً، وتزكية الأمة بإقامة شرع الله كاملاً، والرسول ﷺ تلا علينا الآيات وزكانا فأصبحنا بذلك نضع الأمور في مواضعها فأصبحنا حكماء. وعلمنا الطريق الذي نتعرف به حكم الله والذي نصل به إلى كل حكم عادي أو عقلي في أمر دنيا أو آخرة. فأي نعمة

(1) انظر: خبر الرجيع وقصة خبيب في صحيح البخاري بشرح ابن حجر، الفتح (7/ 290)، في المغازي، باب: غزوة الرجيع، وابن كثير (4/ 62)، وزاد المعاد لابن قيم، ص: 243، وتهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام، ص: 194، حلية الأولياء (1/ 112)، فقه السيرة للبوطي، ص: 197، وكتاب شهداء الإسلام نشار، ص: 97، والإسلام بين العلماء والحكام للبدري، ص: 830، والرحيق المختوم لمبارك فوري.

أجلّ؟[1].

❑❑

وصية قيمة للمتخرجين

تذكر كريمة الأستاذ الراحل عبد اللطيف حمزة السيدة كريمان عبد اللطيف في كتابها القيم «رفقاً بالقوارير» فقرة جديرة بالتدوين والتداول: «أذكر في مقام الحب كلمة لوالدي. رحمه الله. وقت أن كان أستاذاً لقسم الصحافة بجامعة القاهرة وفي إحدى حفلات التخرج قال لتلاميذه: لكم أن تنسوا كل ما تعلمتموه في سنوات الدراسة، على أن تذكروا شيئاً واحداً... وهو الحب... كونوا أيها الشباب أحباء الله تشعروا بمعنى الحق... أحبّاء للناس تشعروا بمعنى القوة، أحبّاء للأشياء تشعروا بمعنى الجمال[2].

❑❑

حوار العقل مع العلم

صدق القائل حيث يقول:

علم العليم وعقل العاقل اختلفا

من ذا الذي فيهما قد أحرز الشرفا

(1) الأساس في التفسير، (1/ 322).

(2) رفقاً بالقوارير، كريمان عبد اللطيف حمزة، ص: 90، دار الاعتصام - القاهرة.

فالعلم قال: أنا أحرزتُ غايته
والعقل قال: أنا الرحمٰنُ بي عُرفا
فأنصع العلم إنصاحاً وقال له
بأيّنا الله في فرقانه اتصفا؟
فأيقن العقل أن العلم سيده
فقبل العقل رأس العلم وانصرفا[1]

المؤمن والبأس خطان متوازيان

لله در القائل:

أسرع أخا الذنب واللهو بتوب إن وقع جرم أو سهوْ
ولا تيأس أبداً من رحمة ذي الإحسان والعفو
فقد روى عن حبيب الله ذوو الثقة والأمانة والصفو
بأن التائب من الذنب كمن لاذنب له
فاعمل باصاح بنصحي تأمن الشرَّ وتنجو

❑❑

الفقيه الحق

ليس الفقيه من يحفظ المحررا
لكن الفقيه من يحفظ البصرا

(1) مجلة السنة، مجلة دعوية سياسية ـ عدد الثالث والعشرون ذو الحجة تصدرها مركز الدراسات الإسلامية برمنجهام، بريطانيا، مدير المركز: محمد بن سرور بن نايف زين العابدين.

فـإن الـعـيـن بـاب الـقـلـب
فـإذا انـفـتـح كـان جـدًا خـطـرا[1]

❑❑

من هو المصلح؟

يقول العلامة محمد الطاهر عاشور كبير علماء المغرب العربي: «ليس المصلح بالذي يَقْصُر دعوة إصلاحه على تعليم الفضائل وتمييزها من أضدادها وغرسها في نفوس أتباعه ومريديه وتدريبهم على العمل بما تقتضيه، ثم يطمئن إذا رآهم دربوا على العمل بها وصارت لهم خُلقاً. بل المصلح الإلٰهي موفَّق ومحدَّث بخبايا وأسرار تخفى على من لم يكن مثله من دعاة الخير وأعلام الإصلاح وأساطين الحكمة، فهو يقتضي معايشة تعاليمه في النفوس، ويقيم لها ما يجددها ويحرسها من أن تتلاعب بها عواصف الأهواء، ويظهر تميزه عن غيره من دعاة الإصلاح في المقام، وهو مقام الحياطة والحراسة وسد ثغورٍ قد يخفى أكثرها أو بعضها عن بقية دعاة الإصلاح»[2].

❑❑

مستلزمات النصر (كيف انتصر الرسول)

يقول شهيد الإسلام سيد قطب رحمه الله:

---

(1) من ديوان الأستاذ الصديق نبيل وهو مخطوطة.

(2) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، محمد الطاهر عاشور، ص: 80، الشركة التونسية، 1979.

«إن النصوص وحدها لا تصنع شيئاً، وإن المصحف وحده لا يعمل حتى يكون رجلاً، وإن المبادئ وحدها لا تعيش إلّا أن تكون سلوكاً، ومن ثم جعل محمد ﷺ هدفه الأول أن يصنع رجالاً لا أن يلقي مواعظ، وأن يصوغ ضمائر لا أن يدبج خطباً، وأن يبني أمة لا أن يقيم فلسفة، وكان عمل محمد ﷺ أن يحول الفكرة المجردة إلى رجال تلمسهم الأيدي وتراهم العيون.

وانتصر محمد بن عبد الله ﷺ يوم صنع أصحابه ـ عليهم رضوان الله ـ صوراً حية من آيات القرآن، تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، يوم صاغ من كلٍّ منهم قرآناً حياً يدب على الأرض، يوم جعل من كلّ فرد أنموذجاً مجسماً للإسلام، ويراه الناس فيرون الإسلام، ولقد انتصر محمد ﷺ يوم صاغ من فكرة الإسلام شخوصاً، وحوّل إيمانهم بالإسلام عملاً، وطبع من المصحف عشرات من النسخ ثم مئات وألوفاً، لكنه لم يطبعها بالمداد على صحائف من الورق، إنما طبعها بالنور على صحائف من القلوب، وأطلقها تعامل الناس وتأخذ منهم وتعطي وتقول بالفعل والعمل ما هو الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله من عند الله جلّ جلاله وعمّ نواله.[1].

من شروط نجاح الدعوة

ولعل من أهم الشروط لنجاح عملية البلاغ المبين والوصول

(1) مجلة حضارة الإسلام، العدد الأول، السنة السادسة 1965، مقال لسيد قطب بعنوان: انتصار محمد بن عبد الله، ص: 17.

بالدعوة إلى نفوس الناس: امتلاك الدعاة خصائص وصفات متفوقة حتى يستطيعوا أداء المهمة المنوطة بهم، وقد يكون من أهمها: الاحتساب والزهد بما في أيدي الناس والابتعاد عن مزاحمتهم على ما هم فيه وعدم الاحتراف بالإسلام.

قال تعالى محذراً أتباع الرسالة الخاتمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

لقد كان فساد «قلب» الأحبار والرهبان سبباً في فساد الجسد وسقوط الأمم السابقة وجعلها وسائل إيضاح للأمة الإسلامية التي تحمل الرسالة الخاتمة، فلا تنتقل إليها العلل التي أصابت الأديان السابقة على يد أتباعها، وما من الأنبياء نبي إلّا كانت له حرفة وكان شعار الأنبياء جميعاً: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]، ذلك أن الاحتراف بالإسلام وتوظيف الإسلام لمآرب شخصية يشوه وجه العاملين لهذا الدين، ويقيم جداراً نفسياً يحول دون وصول دعوة الله واستنقاذ البشر مما هم فيه لدرجة قد تساهم سلبياً في نداء الدعوة وتخبط الدعاة[3].

❑❑

(1) سورة التوبة، الآية: 34.

(2) سورة الشعراء، الآية: 109.

(3) نظرات في مسيرة العمل الإسلامي، عمر عبيد حسنة، من سلسلة كتاب الأمة، ص: 40، ط قطر 1.

سجون الإنسان أربعة

د. علي شريعتي من أكثر المفكرين تأثيراً بالنسبة للإيرانيين وهو فيلسوف الثورة. كان شريعتي رحمه الله كاتباً خصباً كتب أكثر من مائة كتاب، وجزء من تعاليمه التي تركت أثراً عميقاً على الشباب الإيراني تقول: «يعيش الإنسان في سجون أربعة»:

فأولاً: هو حبيس السجن الذي فرضه عليه التاريخ والجغرافيا، ويستطيع أن يحرر نفسه من هذا السجن بالعلم والتكنولوجيا.

ثانياً: هو حبيس سجن الحتمية التاريخية، ويستطيع أن يحرر نفسه بتفهم الكيفية التي تعمل بها القوى التاريخية.

ثالثاً: هو حبيس سجن البناء الاجتماعي والحضاري، ولا بد للتحرر منه من التزود بأيديولوجية ثورية.

أما السجن الرابع: فهو النفس فكل فرد يتركب من العناصر الإلٰهية والشيطانية وعناصر الخير والشر، وعليه أن يختار بينها[1].

❑❑

كل ما في الكون يقرّ بالربوبية

هـوت الـمـشـاعُـر والـمـدا

رك عـن مـعـارج كـبـريـائـك

(1) مدافع آية الله، قصة إيران والثورة، محمد حسين هيكل، ط1، 1998.